

أثر الفقه الإسلامي في مدونات الغرب : المصطلح الغربي من أول أدوات التفهيم في القانون الأوروبي

عبد الغفار بن عبد الله

تعاصر الحضارة الفلسفية والخلقية قد اندرجت في المدونات الأوروبية في مختلف مجالات الفكر الشرعي ديلوماسياً وعسكرياً ومنها نعم أن الاتصالات بين الإسلام وأوروبا قد وصلت تدريجياً عن طريق الاندلس وصقلية كما تبلورت عن طريق مراسى البندقية وجنوة وبيزا وقد كان التجار الأوروبيون يقضون عدة شهور في الشرق في أوائل الخريف ونصف الربيع من كل عام . فكان ذلك أول اتصالهم بالأخلاق والعادات الإسلامية مما تخوض عن نواة القانون التجاري الدولي الذي بُرِزَ أول ما بُرِزَ من خلال انتشار مبدأ حرية البحر وذلِك منذ القرن الثاني عشر الميلادي . وقد كان للموحدين دور فعال في ذلك حيث وضعوا المبادئ الأساسية لهذه القواعد وحاربوا الترسنة باحداهم مليشية خاصة بتأمين البحار في الوقت الذي كانوا فيه سادة المتوسط مما حدا صلاح الدين الأيوبي إلى الاستنجاد بالاستيطان المغربي ضد الصليبيين . وقد كان - كما يقول أندري جولييان في كتابه (تاريخ الشمال الأمريكي) - أول

اما بخصوص المجالات الأخرى وخاصة منها العلوم التي تتصل من قريب او بعيد بالفقه والقانون فقد كان للشريعة الإسلامية اثراً لها القوى في تكييف التقاليد الأوروبية وبنوره اختيارها منذ القرن الناتع الميلادي اي بعد مرور مدة قليلة على انتشار الدين الجديد في إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا وبعمر الجزر المتوسطية وابرز هذا العطاء الإسلامي الجديد هو مبادئ الأخلاق الدولية وقد صنف صديقي وزميلي مارسيل بوزار Marcel Boisard كتاباً في هذا الصدد كان اسمه الاول الإسلام والخلق الدولي .

L'Islam et la morale Internationale

وقد عرض على كتابه القيم في مسوحته بجزئيه تبل طبعه للمشورة قبل ان ينشره في جزء واحد باسم جديد هو (انسية الإسلام Humanisme de l'Islam) كما اهداني دراسة أخرى باللغة الإنجليزية حول (التأثير المحتمل للإسلام في القانون العمومي والدولي الغربي) .

وقد أصبح اليوم من الديبهى ان كثيراً من

التابع عشر بعد (حرب القرم) وقد نص (ماس لاطري) على ذلك من خلال معاهدة ابرتها المودعون انطلاقا من الآية الشرفية « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وتد تمام اليهود يدور كبير في تسهيل نشر هذه المبادئ التي ادرجوا الكثير منها في ظمودهم دعما لنصوصه الشرعية .

وقد اتبّس (الفونس التاسع) — الحكيم ملك قشتالة واميراطور الغرب (1272 م) ، متاثرا بمعطيات الحضارة الاسلامية في النصف الثاني للقرن الثالث عشر — من عدد كبير من المصادر العربية وهو الذي جدد جامعة سالاماً نكا التي قامت بدور كبير في وضع ما ادى الى التأسيس الدولي للحدث وقد كتب الفونس Las Siete Partidas Gregorio Lopez (نشرت بتعالق لاتينية من طرف) في ثلاثة مجلدات (مدريد 1829) وقد استند لها خاصة من قانون (الولايات) في الاندلس المسلمة الراجع الى عامه 1280 م / 679 هـ .

كان اتبّسا فعليا من الشريعة الاسلامية . ولا يخفى على المختصين الذين يحاولون التنظير بين نحو النصوص وتاريخ صدور هذه النصوص ، ما كان من اثر لهذا الكتاب الالهي في نشوء القانون الدولي الاوربي في العصر الحديث .

وقد بدأ فريدريك الثاني Frederik II of Hohenstauffen ، ملك مقلية واميراطور جرمانيا (1250 م) ، يستمد من التراث الاسلامي وهو الذي اسس جامعة نابلسا عام 1224 م وجهزها بالخطوطات العربية وكان (طوماس الاكونيني) االمتفق عام 1274 م من ثلاميده وقد اعتبر فريدريك هذا اول ملك يدعى وخلق وضع الكثير انطلاقا من المناهج العربية . من ذلك وضع لضرائب المباشرة وغير المباشرة والهيكل العسكري والرسوم الجمركية واحتياج الدولة للمعادن وبعض البضائع مما كان يعرف في الشريعة الاسلامية منذ القرنين التاسع والعشرين ولكنه اصبح نموذجا احتذته اوربا كلها .

وقد كان الفرنج في فلسطين يتلقّون الاراء والنظريات الاسلامية لا فرق بين المورائى والتكنولوجى منها خاصة في مجال الزراعة والتجارة وتنظيم الصحة العمومية ، ومن مظاهر هذا التأثير بروز روح التسامح بدل العنف لدى الفرنج الذين كانوا يحدون حسون المسلمين بفلسطين وسوريا في كل نصرفاتهم بل ان نظام الكثير من المؤسسات المسيحية مثل les templiers

اسطول في البحر الابيض المتوسط . والمودعون هم اول من لقن مصلحات التجارة الدولية ايضا لاوربا . هذا وان اول بادرة نجحت عن حرية التبادل التجاري بين الشرق والغرب خاصة في المتوسط هي ظهور عبلاء تجاريين مهدوا للتبادل الدبلوماسي فاصبحوا عبارة عن فنائلة اوريبيين على التراب الاسلامي بعد الحروب الصليبية وقد بادر الايطاليون والقطلنانيون الاسبان وتجار جنوب فرنسا (ناحية بروناس) الى اثابة هذه المصالح في الشرق الاسلامي مكان من لوازم هذا التأثير ادراج نص قانوني في دستور بلدية مرسيليا منذ القرن الثالث عشر حول احترام ملكية الاجانب ولو في ابان الحرب وذلك احتذاء بما كان ينتفع به التجار الفرتسيون على الشواطئ المصرية والسودانية وعلمون ان حماية المغاربة والتجار الاجانب كانت تقسم منذ اوائل الاسلام بسمة الوجوب في دار الاسلام ، وقد تبلور التأثير الاسلامي عمليا في التنصيص على هذه المبادئ فعلا في المعاهدات التجارية . مثل ذلك المعاهدة التي امضيت عام 895 هـ / 1489 م بين جمهورية غلورانسا والسلطان الملوكي تابع امير القلعة بالقاهرة وقد تم توقيعها بعد ثلاث سنوات من المفاوضات ببروز خلالها اولا كرسوم سلطاني لتأثيره الادارية بمصر وسوريا قبل ان تكون معاهدة مع تاجر اوريبيين . وقد نص هذا الرسوم بالاضافة الى حماية التجار وضمان حقوقهم على عدة بنود تتعلق برسوم الجمارك (14 %) والقواعد الادارية المتبعة واقامة مفصلية بين التجار داخل فنادقهم ووسائل تحويل القروض بل نص المرسوم حتى على امكان التحكيم على يد السلطان بين تاجر غلورانسا وتاجر اوريبي آخر في على الاراضي لو المياه الملوكة كل ذلك انطلاقا من الشريعة والتقليد الاسلامية .

وقد ادت المصالح التجارية بين الشرق الاسلامي واوربا لا الى امضاء معاهدات دولية محسب بل الى تطوير الاعراف الجمركية والقوانين الادارية والبحرية والحرية مع اوربا الغربية ، وقد تأسست في الاندلس عام 741 هـ / 1340 م مفصلية للبحر كما وضعت مدونة للتقاليد والقواعد تجمعت فيها نصوص ظهرت منذ القرن الحادى عشر الميلادي ايام المودعين ، وقد تم ذلك اولا في برشلونة حيث نشرت مجموعة قواعد لتنظيم التجارة البحرية والنهر على عدم المسؤولية الجماعية مما لم يعرف الا خلال القرن

الشرعية وتد اشار الى ذلك Joinville في مذكراته (Mémoires) ركان قد صاحب لويس التاسع الى مصر (توفي عام 1317 م) (كما ذكر ذلك Charles Klein في كتابه (لويس التدليس ملك بين اندام النقاء باريس 1970 من 60) .

وهكذا يمكن القول بأن تأثير الاسلام في اوروبا قد شمل كل المجالات سواء منها الدبلوماسي (بأحداث تنصليات) او اقرار مبدأ شخصية القانون وكراهة الاجنبي وضمان حقوقه واساليب اعلان الحرب ووسائل تعويض العدو وحماية الاسرى والمرضى والمعجزة واستعمال الشارات الضوئية خلال المعارك الليلية وحمل الزاحل في المواصلات وطريقة تعزيز العقائد ومبادئ النروية ، وقد بلغت هذه التأثيرات الانسانية حتى ملوك الجerman الذين كان لرهباتهم اوثق الصلات بيلات فريدريش الثاني بمقلية .

على ان المغرب بالخصوص كان له بالإضافة الى الابادات الخلابة في مصر الوحدى ابداعات اشار اليها الاستاذ كالي (Caillé) في الكتاب الذي وضعه حول المعاهدات والاتفاقات والمراسيم في عهد السلطان سيدى محيى بن عبد الله حيث ابرز طابع الخلق والابداع لكثير من المبادئ التي اندرجت في مدونات القانون المعموم الدولي باوروبا .

او فرسيو المعبد الذين تكونوا بفلسطين hospitaliers عشر من التنظيمات الاسلامية خاصة منها نظام الرباط، وقد برزت الفلسفة الاسلامية آنذاك وربطت بصلة وثيقة بين القانون والاخلاق وبين الفرد والحكومة وظهر الانسان في عمله الخلاق كشخصية مستقلة تناول ان تخلق من خلال القانون الشروط الاجتماعية التي تبرز كرامة الانسان ومسؤوليته ، وقد ترجم الكثير من الدراسات الاكademie في القانون والادارة بياطليا من النصوص العربية وراجت باوروبا كلها على يد الاساتذة الذين كانوا ينتقلون حسب العادة من جامعة الى اخرى ، وقد كان لهذا الطابع الخلقي في الشريعة الاسلامية اثره الاسمي في اوروبا الموسيطية مما رفع الشعور والحسنة الثانية وكان هذا المظهر بدون شك الميزة المثلى في اثناء الاسلامية التي كانت نظرية العدالة وتطبيقاتها الفعلية عند الغربيين ، من ذلك اعتبار كل من تتجه اليه التهمة ببرينا الى ان يتحقق العكس وهذا هو مبدأ براءة الاصل الذى جاء به الاسلام منذ البداية ومعلوم ان (لويس التاسع او لويس التدليس 1270 م) ، ملك فرنسا الذى عاش بفلسطين وخالط علماء الكلام امثال (طوماس الاكتيني) ، قد تأثر مباشرة بالاسلام في ينابيعه التطبيقية بارض فلسطين فظهر ذلك في اصلاحاته